تأمل في (يو17)

في مساء الخميس الكبير أو الخميس الأخير، حينما كان السيد المسيح في الطريق إلى جثماني، ومنه إلى المحاكمة والصلب، قال لله الآب، وكأنه يقدم تقريرًا عن خدمته على الأرض..

[1]أنا مجدتك على الأرض

هوذا السيد المسيح يقدم تقريرًا عن خدمته لله الآب، في نهاية فترة تجسده على الأرض. فيقول له: "أنا مجدتك على الأرض.. العمل الذي أعطيتني لأعمل، قد أكملته" (يو17: 4).

وهنا نسأل من الناحية اللاهوتية: ما معنى أن شخصًا يمجد الله؟

بديهي أنك حين تمجد الله، لا تمنحه مجدًا. لا تعطيه مجدًا. لأن الله لا ينقصه مجد. وهو ليس محتاجًا إلى مجد يأخذه منك. والسيد المسيح نفسه قد قال: "مجدًا من الناس لست أقبل" (يو5: 41).

يذكرني هذا بقول البعض إن الله قد خلق البشر لكي يمجدوه!! كلا. بلا شك، فالله ليس محتاجًا إلى مجد يناله من البشر. وقبل أن يخلق البشر كان ممجدًا من ملائكته. وقبل أن يخلق الملائكة كان ممجدًا وكيف؟

الله ممجد من صفاته اللاهوتية، ممجد في أزليته، ممجد في قدرته على كل شيء، ممجد في عدم محدوديته إذ لا يحده مكانًا ولا زمانًا، ممجد في عظمته، في جماله الذي لا يوصف، في قداسته، في حكمته، في معرفته التي لا تُحد، في قدرته على الخلق.. وباختصار: مجد الله في لاهوته..

إذًن فما معنى عبارة: "أنا مجدتك على الأرض"؟ معناها: أظهرت مجدك للناس:

أعلنته لهم. عَرَفت الناس بمجدك.. وليس معناها اعطيتك مجدًا أو اضفت إليك مجدًا. وهنا نتدرج إلى سؤال آخر هل تمجيد شخص يعني منحه مجدًا ليس له؟ أقول صراحة: إن لم يكن مجد الشخص في ذاته، فالمجد الذي يمنحه الآخرون له من الخارج، ليس شيئًا. صدق المرتل في المزمور حينما قال: "كل مجد ابنة الملك من داخل" (مز45) مع أنها مشتملة بأطراف موشاه بالذهب، ومزينة بأنواع كثيرة.

وهنا نسأل كمثال: ما معنى أن إنسانًا ينال شهادة عملية؟

هل معنى هذا أن الكلية أو الجامعة قد منحته شيئًا ليس له، أم أنها شهدت بمستواه العلمي، سواء كان بكالوريوس أو ماجستير أو دكتوراه...؟ لذلك سميت شهادة.. شهادة علمية، أي شهادة بما له من علم..

إن كان هذا مع البشر، فلماذا نقول إذن عن الله تبارك اسمه.. نمجده، أي نعترف بمجده. ولعل هذا أيضًا كان المقصود من قول اليهود للرجل المولود أعمى:

"أعط مجدًا لله.." (يو9: 24).

أي اعترف بمجد الله ولا تنكره، ولا تجدف عليه. وبالمثل حينما نقول في المزمور: "ليس لنا يا رب ليس لنا. لكن لاسمك القدوس أعط مجدًا" (مز115: 1). أي أظهر مجدك للناس. ويظهر هذا المعنى واضحًا في المزمور: **"السموات تحدث بمجد الله، والفَلَك يخبر بعمل يديه" (مز19: 1).**

طريقة تمجيدها لله، أنه تحدث بمجده، تعلنه، تخبر بعمل يديه.. وهكذا نحن حينما نجد الله، إنما نخبر بمجده، نعلنه نظهره للناس نتحدث عنه..

وبهذا المعنى نفهم قول السيد المسيح لله الآب: "أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم" (يو17: 6). أظهرت لهم اسمًا جديدًا لك: إنك الآب. أنت أبوهم السماوي الذي تحبهم.

ما كانوا يعرفونك من قبل كما أعرفكم، ربما كانت علاقتهم بك علاقة خوف، منذ أن اختبأ ابوهم آدم منك" قال "سمعت صوتك في الجنة فخشيت" (تك3: 10). أما أنا فعرفتهم اسمك "الله محبة" "1يو4: 16". عرفتهم أنك أبوهم، وأنك تسكن فيهم بروحك القدوس.

"عرفتهم اسمك وسأعرفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم" "يو17: 26".

نعم هكذا مجد المسيح الله الآب، إذ عرف الناس به، إذ لم يكونوا يعرفونه المعرفة الحقيقية، ولذلك قال "أيها الآب البار، إن العالم لم يعرفك. أما أنا فقد عرفتك" (يو17: 25). وتمجيدي لك، هو أن أعرفهم بك، اجعلهم يعرفونك "فهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك.." (يو17: 3).

هذه هي رسالتك يا أخي الخادم، أن تجعل تلاميذك وكل من حولك يعرفون الله.

ليس الله فقط الذي في الكتب، إنما الله الذي في الحياة، الله الذي فيهم:

الله الذي معهم، وهم لا يرونه، ولا يدركون وجوده. كما قال له القديس أوغسطينوس "كنت معي، ولكني من فرط شقوتي لم أكن معك".. الله الذي قيل عنه في انجيل يوحنا "النور أضاء في الظلمة، والظلمة لم تدركه" (يو1: 5). هذا الذي بشر به المعمدان قائلًا "في وسطكم قائم لستم تعرفونه" (يو1: 26).

هكذا نمجد الله، أي نجعل الناس يعرفونه، فيحبونه وهذا ما فعله المسيح:

فقال: عرفتهم اسمك، وسأعرفهم (يو17: 26). أنت الآب المحب الذي تعلم ما يحتاجونه، فتعطيهم دون أن يطلبوه "أبوكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها" "وهذه كلها تزداد لكم" (مت6: 32، 33). أنت الآب السماوي، الذي كتبت على باب سمائك: اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم" (مت7: 7). أنت الذي تهتم بطيور السماء فتقوتها، دون أن تزرع أو تحصد أو تجمع إلى مخازن. وأنت الذي تهتم بزنابق الحقل، وتلبسها من الجمال ما لم يكن يلبسه سليمان في كل مجده" (مت6: 26- 29).

أنت الآب السماوي الذي "هكذا أحب العالم، حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية" (يو3: 16).

أنا أعرف يا أخي الخادم أنك تعرف الناس بالله. ولكن من الله الذي تعرفهم إياه؟

هو الصورة التي في ذهنك بلا شك. ألا ليتها تكون صورة حقيقية. لأنك لو أعطيته صورة خاطئة عن الله، فلا تكون خدمتك تمجد الله. إذن لابد أن تعرفه. لكي تعرف الناس به. وهكذا قال السيد المسيح ".. أما أنا فقد عرفتك.. وعرفتهم اسمك" (يو17: 25، 26) فهل أنت يا أخي قد عرفته؟

ما أكثر الخدام الذين لم يعرفوا الله بعد.. ومع ذلك يحاولون أن يعرفوا الناس به..

فهل أنت قد عرفت الله، قبل أن تعرف الناس به؟ هل عرفته المعرفة الحقيقية العميقة التي جعلتك تحبه، وتثبت فيه؟ هل قلت مع القديس بولس الرسول.." ما كان لي ربحًا، فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة بل إني أحسب كل شيء أيضًا خسارة من أجل فضل معرفة المسيح ربي" (في3: 7، 8). نعم، هل عرفت الرب هذه المعرفة الاختبارية القلبية؟

وهل المعرفة التي تعطيها للناس عنه، هي معرفة تقودهم إلى محبة؟

أم هي مجرد معرفة تقف عند حدود الذهن، ولا تتخطاه إلى القلب، وإلى الحياة مع الله..

إن كان الأمر هكذا، فأعرف أن الخدمة ليست مجرد معرفة والمعرفة وحدها لا تمجد الله. انظر ماذا يقول الرب للآب "عرفتهم اسمك، وسأعرفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون فيهم" (يو17: 26).

بهذا الحب، يدخلون إلى ملكوت الله، إذ يملك الله على قلوبهم ويتمجد فيهم:

بالحب يحيون مع الله، وتظهر حياتهم إنها عمل الله ويرى الناس أعمالهم الحسنة، فيمجدون أباهم الذي في السموات" (مت5: 16).

فهل أنت هكذا في حياتك وفي خدمتك؟

هل يتمجد الله في حياتك؟

وهل يتمجد الله في خدمتك؟

هل الله هو مركز الخدمة التي تخدمها. في كل ما تعمله وفي كل ما تقوله، تظهر اسمه للناس، وتربطهم بمحبته، وتجعلهم يشتاقون إليه ويسعدون بعشرته؟

أم أن خدمتك منفصلة عن الله، مجرد معلومات ومعرفة! أو مجرد أنشطة واجتماعات! ولقاءات وثقافة ودراسة، تسميها خدمة!

وهؤلاء الـذين تخدمهم، لا يكون فيهم الحب الذي أحبك به وأحبهم هل تسـتطيع في كل هذا أن تقول له مع المسـيح "أنا مجدتك على الأرض"؟! اسأل نفسك: في أي شـيء تمجـد الله بك؟ هل انتشـر ملكوت الله عن طريقك؟ هل عرف الناس الله؟ وهل أحبوه وثبتوا فيه، بواسطتك؟

هل كنت الإناء الذي يعمل به الله، والفم الذي يتكلم به روح الله؟ وهنا نسأل: **كيف أمكن للمسيح أن يمجد الآب؟**

قلنا إنه عرف الناس به وجعلهم يحبونه. وماذا أيضًا؟

لقد قدم للناس صورة الله الجميلة. إذ هو صورة الله غير المنظورة" (كو1: 15) " بهاء مجده ورسم جوهره (عب1: 3) "الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الكائن في حضن الآب هو خبر" (يو1: 18). **وهكذا رأوا كل القداسة فيه: بل رأوا الله الآب.**

وقال لهم بكل وضوح "الذي رآني فقد رأى الآب" (يو14: 9) نعم رأوا فيه صورة الله الجميلة، بكل ما فيها من كمال ومن جمال، فأحبوا الله فيه، أحبوا هذا القدوس الذي "انفصل عن الخطاة، وصار أعلى من السموات" (عب7: 26) أحبوا هذا الذي تحدى أعداءه قائلًا "من منكم يبكتني على خطية؟!" (يو8: 46).

فهل حياتك هي صورة الله؟ يتمجد الله بها؟

هل يتمجـد الله بحياتك، كما نتمجـد بكلامك؟ أم أنك سـبب عثرة لآخرين، وبسـببك يجدف الناس على اسم الله كما قال بولس الرسول لأهل رومية "لأن اسم الله يجدف عليه بسببكم بين الأمم" (رو2: 24).

ما أجمل أن يكون أولاد الله سببًا لتمجيد اسمه القدوس، بحياتهم المثالية التي يعجب بها الناس، فيعطون للكل صورة جميلة عن تعاليم دينهم وسموها..

إن السيد المسيح مجد الآب بهذه الصورة الجميلة التي قدمها للناس. وماذا أيضًا؟ كما مجد الآب بكرازته. مجده أيضًا بمعجزاته أظهر لهم قـوة الله إذ هو نفسه "قوة الله وحكمـة الله" (1كو1: 24) أراهم الله القـادر على كل شـيء، الـذي عمل أعمالًا لم يعملها أحـد من قبل" (يو15: 24). ونسب هـذه الأعمـال إلى الآب، فقـال "الآب الحال فيَّ هو يعمل الأعمال" (يو14: 10) وقـال "الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها" (يو5: 36).

وبأعماله أظهر للناس قدرة الآب، فتمجد الآب فيه..

لست أطالبـك بـأن تكون هـذا، صـانع معجزات كالمسـيح.. فليس الجميع أصـحاب قوات (1كو12: 29). ولكنني ببساطـة أقول إن الخـادم صاحب الصلاة المستجابة، يتمجد الله به. بماذا يمكن أن يتمجد الآب أيضًا:

إن السيد المسيح مجد الآب على الصليب

حينما دفع ثمن العدل الإلهي. وصار ذبيحة خطية كما صار محرقة وفصحًا. وذلك حينما قدم أمجد صورة للحب وللبذل والفداء "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يو3: 16).

وكما تمجد الآب على الصليب تمجد الابن أيضًا وأرانا أن الألم هو الطريق إلى المجد. وهكذا قال الرسول في (رو8: 17)

"إن كنـا نتألم معه، فلكي نتمجـد معه أيضًا". السـيد المسـيح تمجـد بالألم وأمجد صورة له، هي صورته وهو على الصـليب. هي صورة الحب. في عمق مجده. أحبها القديس بولس الرسول فقال: "مع المسيح صلبت. فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ" (غل2: 20).

المسيح مجد الآب على الصليب بالطاعة: "أطاع حتى الموت، موت الصليب" (في2: 8).

ونحن أيضًا نستطيع أن نمجد الآب بالطاعة، وبالحب والبذل كصورة المسيح على الصليب.

نمجده بالخدمة وبناء ملكوته، وتعريف الناس به وجذبهم إلى محبته، وتقديم صورته للناس عمليًا.

ولكن أسوأ ما في الخدمة، أن الخادم يحاول أن يمجد نفسه وليس الله وهنا لا نسمي الخدمة بهذا الوضع خدمة حقيقية، لأن الله لم يعد هو الهدف بل حلت محله الذات!!

وبـذلك أصـبح الخـادم يسـعى إلى أن يظهر ويكبر ويتمجـد من الآخرين، ولا يكون آخر الكل وخادمًا للكل وعبـدًا للكل كما قال المسـيح (مر9: 35). والسيد المسيح نفسه لم يأت ليُخدَم بل ليَخدِم، ويبذل نفسه فدية عن كثيرين (مت20: 26- 28).

يوحنا المعمـدان أعطانا مثلًا نبيلًا عن كيف تختفي الـذات ليكن المجـد لله وحده فقال: **"ينبغي أن ذاك يزيـد وإني أنا أنقص" (يو3: 20).**

وقـال القـديس بولس الرسول "ليكون فضـل القوة لله لا منا" (2كو4: 7). والقـديس بطرس الرسول لمـا شـفى الرجل الأعرج على باب

الجمل، وتراكض الناس متعجبين، حول أنظارهم إلى المسيح وقال "ليس بتقوانا أو بقوتنا جعلنا هذا يمشي" (أع3: 12- 15).

وعكس ذلك هيرودس الملك الذي قبل كلمات المديح "ولم يعط مجدًا لله" ضربه ملاك الرب فصار يأكله الدود، ومات" (أع12: 212- 23).

أخيراً، أقول كلمة ختامية وهي:

إننا إن مجدنا الله على الأرض، يمجدنا الله في السماء، وهنا أيضًا فالذين سبق فعرفهم سبق فعينهم.. وهؤلاء مجدهم أيضًا" (رو8: 29، 30) "وإن كنا نتألم معه، فلكي نتمجد أيضًا معه" (رو8: 17). وقد دعانا جميعًا إلى مجده الأبدي" (1بط5: 10) لنكون شركاء المجد العتيد أن يعلن.. وننال إكليل المجد الذي لا يبلى" (1بط5: 1- 4). "وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد" (عب2: 10). نعم ما أكثر ما أعطانا الله من مجد ويعطينا.

فهل نحن نمجد الله على الأرض، وهو الذي مجدنا نحن التراب والرماد، وخلقنا على صورته ومثاله، وجعلنا هياكل لروحه القدوس، ووهبنا مواهب الروح!!

---

1. مقال لقداسة البابا شنوده الثالث نشر في جريدة وطني بتاريخ 18-1-1998م